

الإنسان: الأيقونة الحيّة

عندما اجتمع وزير الخارجية الروسي غروميكو بنظيره وزير الخارجية الأميركي شولتز، هل تدري ماذا تبادلوا؟ صور أحفادهما!

مجموعة صور الله

كنا نحب أن نجلس ونتصّح مجموعة الصور القديمة لعائلتنا، ونستكشف فيها جذورنا، لأن ذلك يساعدنا على معرفة هويتنا. كذلك الأمر عندما ننظر إلى المسيح، ابن الله، لأننا في الواقع إخوته وأخواته. حينئذ فقط نجد هويتنا وكما لنا لأنا أعضاء في عائلة الله. إن نحن لم نبحت جدًّا في الله أينا، ويسوع أينا، فهل نقدر أن نعي من نحن؟ هل نعرف ما معنى كوننا مخلوقين على صورة الله ومثاله؟ يقول لنا الكتاب المقدس إن يسوع هو صورة الله، أي أنه إيقونة مقدّسة. فهل تعرف أنك أنت أيضًا مخلوق لتكون إيقونة إلهية؟

فما هي الإيقونة؟ وهل يجوز للمسيحيين أن يقتنوها؟ هذا هو الموضوع الذي سنعالجه باختصار في هذه العجالة. فمن الأهمية بمكان أن نصيح صورًا للمسيح.

مخلوقون على صورة الله

كنا نرى ذواتنا في من نحب، لاسيما في أولادنا وأقربائنا. وهذا ينطبق على الله أيضًا. "ورأى الله جميع ما صنعه فإذا هو حسن جدًا" (تكوين 1: 30)

غير أنه يُسرّ بالبشر أكثر من جميع ما أبدعه. وهذا يعني أنه يُسرّ بك! هل تدري لماذا؟ لأن الله "خلق الإنسان على صورته ومثاله." (تكوين 1: 27)

وتعبير آخر، كل واحد منا هو صورة مصقّرة لله. طبعًا لسنا كالله عز وجل، لكننا مصنوعون على مثاله. "فإن الله خلق الإنسان لعدم الفساد وجعله صورة ذاته الإلهية." (حكمة 2: 23) نحن إذًا بحكم طبيعتنا على مثال الله، حتى لو بدت هذه الخصلة "دنيئة" فينا. فالله يحبنا لا محالة لأننا أبناءه. ينظر إلينا فيرى صورته فينا، ويخفق قلبه حبًّا. إنّه فخور بنا، وكأني به يعتز بنا إذ يقارننا بسائر مخلوقاته، لا

سيما الملائكة الذين لا يستطيعون أن يتخيّلوا لماذا يحبنا كلّ هذا الحبّ ويتحمّلنا مع أننا عصبة من الأبناء المتمرّدين. وكثيرًا ما أنا ذاتي أسأله لماذا؟ فهو لا يتحمّلني فحسب، بل أيضًا يساعدني لأتحول وأصير أكثر شبهًا به.

نحن صورة المسيح

كيف؟ أولًا أرسل الله ابنه، ذلك الابن الذي قدّمه لنا من السماء، إذ أعلن بصوت عظيم مفعم بالفرح: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت." (متى 3: 17). يتضح من ذلك أن الله لا يتمالك عن حبنا. وقد أرسل ابنه الوحيد ليكون لنا قدوة. "إنكم لهذا دعيتم، إذ أن المسيح تألم لأجلكم وأبقى لكم قدوة لتتفتوا آثاره." (1 بطرس 2: 21). أن تكون مسيحيًا يعني أن تتفتي آثار المسيح.

إن كلمة "قدوة" الواردة أعلاه هي في الأصل اليوناني (Hypogrammatos)

وقد تبدو معقّدة في معناها، لكنّها بسيطة جدًّا في معناها. هل تذكرون السبورة التي كنتم تستعملونها وأبتم أطفال؟ في أعلاها كانت حروف الأبجدية مكتوبة بخط واضح جميل. وكان عليكم أن تتقلوا تلك الحروف بالحوارة وتقلدوها بمنتهى الدقة. ذلك بالضبط هو معنى كلمة (Hypogrammatos). إنها أبجدية مخطوطة على سبورة خصيصًا للأطفال كي يتدربوا على الكتابة الصحيحة! والآن السبورة يريد أن تتلمذ لابنه الحبيب وتتعلم منه الحكمة. يأمرنا أن نحاول مرارًا وتكرارًا اقتفاء آثار ابنه على أكمل وجه. غير أن الاقتداء بسيرة يسوع والتمثل به لا يمكن أن يتم بقدرتنا الذاتية. فكأنّي بالله عز وجلّ يمكّن بيدنا ويرشدها بينما تتسخ صورة المسيح: "أما جميع الذين قبلوه فقد أتاهم سلطانًا أن يصيروا أبناء الله" (يوحنا 1: 12). إن هذا السلطان يأتي من الروح القدس. "الربّ هو الروح. وحيث يكون روح الربّ فهناك الحرية. ونحن جميعًا، والوجه سافر، نعكس كما في مرآة مجد الربّ، فنتحول إلى تلك الصورة بعينها، المتزايدة في البهاء، بحسب فعل الربّ الذي هو روح" (2 كورنثس 3: 17-18). فإذا تأملنا الربّ بتقوى صريًا مماثلين له. إن تلك المرأة هي المسيح، حكمة الله. وكلما حدّثنا إليه أصبحنا على مثاله. هذا ما يلمح إليه كاتب الرسالة إلى العبرانيين (1: 13) حيث يقول: "الابن هو ضياء مجد الأب، وصورة جوهرة، وضابط كلّ شيء بكلمة قدرته." والجدير بالذكر أن كلمة (Character) التي استعارتها اللغة الانكليزية من

اليونانية قد وردت في هذا النص عينه وهي تعني "صورة دقيقة". هل سبق لك أن ذوّبت شمعًا عسليًا لتصنع منه نموذجًا ما؟ إن الشمع العالق على أصابعك، عندما تزرعه، تجد عليه رسمًا دقيقًا لبصماتك. هذا بالضبط ما تعنيه كلمة (Character) التي تُقلت في "ترجمة القدس" للكتاب المقدس بتعبير "نسخة طبق الأصل".

عندما تتقلّ أعباء الحياة على كاهلنا، تحين ساعة الربّ لطبع صورته فينا ويجعل منا مثالًا له و"نسخة طبق الأصل" لابنه الحبيب. "نحن نعلم أن الله في كلّ شيء يسعى لخير الذين يحبونه، بحسب قصده، لأن الذين سبق فعرّفهم، سبق أيضًا حدّد أن يكونوا مشابهيًا لصورة ابنه، فيكون هذا بكرًا ما بين إخوة كثيرين." (رومة 28: 28-29)

المشاركة في الطبيعة الإلهية

هذا ما كانت الكنيسة في أول عهدها تسمّيه التالّه، أي الصيرورة على مثال الله. ويقول القديس الرسول بطرس في هذا الصدد: "إن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كلّ ما يؤول إلى الحياة والتقوى، بمعرفة الذي دعانا بمجده الخاصّ وببقوته، اللذين بهما وهبت لنا المواعيد الثمينة العظمى، حتى تصيروا بها شركاء في الطبيعة الإلهية، إذا ما تخلصتم من الفساد الذي دخل العالم بالشهوة." (2بطرس 1: 3-4) تلك هي بشرى التجسد! الطبيعة الإلهية اعتنقت الطبيعة البشرية لكي تتمكن من المشاركة في الحياة الإلهية. إن سرّ التجسد والقيامة هو الذي يولد فينا اليقين بأنّ في مقدورنا نحن أيضًا أن نتجلّى. ذلك أن الله عندما تأنّس، اتخذ جسدًا مقدّس المادّة المخلوقة. المادّة ليست إذًا شرًّا في حدّ ذاتها. فالله بعدما فرغ من خلق كلّ شيء، نظر إلى ما صنع فوجده "حسنًا جدًا." فالخليفة هي من الروائع الناجمة عن محبة الله.

"أجل نحن صنّع الله، إذ قد خلّفنا في المسيح يسوع للأعمال الصالحة التي أعدّها الله من قبل، لنسلك فيها." (أفسس 2: 10). والقديس بولس يقول لنا أكثر من مرة أنّ المسيح هو صورة الله. إن لفظة صورة في اليونانية هي (Ikon). لذا اعتاد المسيحيون منذ عهد الرسل أن يرسموا صورًا أو إيقونات للسيد المسيح. والإيقونات هي صفائح مقدّسة تحمل رسم السيد المسيح أو أمه السيدة العذراء أو الملائكة أو القديسين. فالإيقونة تمثّل الجوهر الحقيقي للشخص المرسوم. ويسوع المسيح هو حرفيًا صورة الله، أي الرسم الحسي الذي يمثل الله الذي لا يرى تمثيلًا دقيقًا. وكلّنا

الإنسان: الأيقونة الحية



مكتب الخدمات التربوية لأبرشية نيوتن الملكية

<http://melkite.org/>

الرسمية "صوفيا/الحكمة" الصورة مقبسة من مجلة لأبرشية نيوتن الملكية

مدعوون لتكون أيقونات حية للمسيح. فإذا رأينا يسوع رأينا الله. ومن رأنا رأى المسيح. وهذا ما نرجوه.

الأيقونة أداة للنعمة

هناك من يعترض مدعيًا أنّ التأمل أو الصلاة أمام أيقونة نوع من عبادة الأوثان. إن هذا الاعتراض ليس بجديد. ففي عام 787 اجتمع نحو ثلاثمائة أسقف في المجمع المسكوني النيقاوي الثاني. فناقشوا هذا الموضوع عينه واستنتجوا ما يلي: يجدر بنا أن نؤدّي التكريم والاحترام لأيقونة السيّد المسيح أو أمه السيّدة العذراء أو الملائكة أو القديسين. أمّا العبادة فمقصورة على الله وحده. وإليكم بعض المبررات التي أوردوها: لقد جاء في سفر الخروج (20: 4): " لا تصنع لك منحوتًا ولا صورة شيء مما في السماوات من فوق، ولا مما في الأرض من أسفل ولا مما في المياه من تحت الأرض. لا تسجد لها ولا تعبدّها".

ولكن بعد ذلك بخمسة فصول يقول الله: " واصنع كرويين، من ذهب مطرّق تصنعهما، على طرفي الكفارة " (خروج 25:18) كما أمر الله موسى أن يصنع حية من النحاس، على شكل الحيات الألسنة. فهل ناقض الله نفسه؟ كلا! والبرهان نجده في الآية التي تتبع التّهي عن صنع الصّور فهي تقول: " لا تسجد لها ولا تعبدّها، لأنّي أنا الربّ إلهك، إله غيور... " (خروج 20: 5). إذا ليست الصّور والأعمال الفتيّة شرًا. وبما أن الله صار إنسانًا حقًا فلنا أن نرسمه ولا شكّ.

نحن أيقونات حية:

حياتنا تتقدّس وتحسّن إذا واطبنا على التأمل في يسوع المسيح، صورة الله المتجسّد. كما أن الصلاة الخاشعة أمام الأيقونات المقدّسة والتأمل في سيرة من تمثّل، من شأنه أن يحنّنا على أن نصيحب أيقونات ناطقة للحياة الإلهية، لأن قدرة الله المحولة كامنة في الأيقونات. فنحن مدعوون إلى المشاركة في صورة الله المتأنّس (رومة 8:29). علينا إذا أن نكرّم بعضها بعضًا وأن نرى صورة الله في إخواننا البشر. فإن ظننّا أنه يعسر العثور على تلك الصورة في بعضهم، فمن واجبنا أن نساعدهم على اكتشافها. نذكر أيها القارئ العزيز أننا نستطيع أن نرى الله كلّ يوم إن شئنا! فلماذا لا نساعد إخواننا على أن يقدّروا علامة محبة الله في حياتهم؟ وعندما تنظر في المرأة، تبصر في ما ترى وكن على ثقة أنّك صورة الله، تتحول من مجد إلى مجد أعظم!

الصلاة والإيمان بنعمة الله يُتيحان للمسيح أن يسكن فينا. والأيقونات المقدّسة تتيح لنا أن نكون صورًا تمثّل الحياة الإلهية. ليست الأيقونات رسمًا حقيقيًا للملامح القديسين، بل نوعًا من الكاريكاتور مع فارق واحد وهو أنها تركّز على الملامح الجيدة، لا السيّئة. إنّها رسوم رمزية لقداسة أولياء الله وسيّرتهم. فإذا نظرنا إلى أيقونة وتأمّلنا في سيرة من تمثّل، قد يُنعم الله علينا بأن تتحوّل إلى صورة المسيح. وما القديسون الذين تطوّبهم الكنيسة سوى أشخاص غير المسيح حياتهم. فوُلدوا ثانية في العائلة السّماوية، إذ تحوّلوا إلى صورة المسيح. كلنا مدعوون إلى القداسة، أي إلى أن نصيحب أيقونات حية للمسيح. والأيقونات - كسواها من وسائل التقوى - هي أدوات للحصول على النعمة والشفاء. أي أنّ النعمة الإلهية تعمل بواسطة هذه الرموز الحسية. فأيقونات القديسين هي نوع من ذخائرهم. وبنعمة الله الكامنة في القديس تكمن أيضًا في أيقونته. فكم من التأسّ نالوا الشفاء بمجرد لمسهم أيقونة وهم يصلّون بحرارة الإيمان. ذلك أنّ الرّوح القدس هو الذي يبارك الأدوات المقدّسة. وهو الذي يشفي بواسطة هذه الوسائل المادية، لأن الله عندما تأتس افتدى الخليقة كلّها وقّدها.

تكريم القديسين

غير أن ذلك لا يعني بتاتًا أننا نعبد الأيقونة أو القديس الذي تمثّله. فالعبادة محصورة في الله عزّ وجلّ، دون سواه. أمّا القديسون فعليًا أن نكرّمهم ونأدّي لهم الاحترام. من ممّا لم يقف ويصفق لشخصية فذة؟ فكم بالحريّ علينا أن نكرّم رجال الإيمان البارزين الذين سعوا السعي الحسن. فالقديس بولس يوصينا قائلًا: "اقتدوا بي كما أنا اقتدي بالمسيح." (1 كورنثس 2: 1)

وإذا كنّا نتبع المسيح فلا يسعنا إلا أن نحري مع من سبقونا في اتّباعه. وهنا أيضًا يوصينا القديس بولس قائلًا: "اقتدوا بي جميعكم، أيها الإخوة، وتبصّروا في الذين يسلكون على المثال الذي لكم فينا." (فيلبي 3: 17)

هل الأيقونات أصنام؟